هدية رمضان
كريمكناس 79 - نلتقي لنرتقي في جو يسوده الحب والاحترام

سورة الفاتحة

تفسير موضوعي

في ضوء عبادة الدعاء

كريم امصنصف

مدرس علوم القرآن والتفسير

الطبعة الأولى

2017 هـ

كريمكناس79

Karim.msansaf@gmail.com

عنوان الكتاب: سورة الفاتحة تفسير موضوعي في ضوء عبادة الدعاء
التصنيف: العلوم الإسلامية (تفسير القرآن الكريم)
المؤلف: كريم امصنصف
الناشر: كريمكناس79 الخاصة والمحدودة للنشر الإلكتروني
الطبعة: الأولى 2017
عدد الصفحات: 32

© حقوق التأليف: هذا العمل مشاع لكل المسلمين، فيرخص لكل من يرغب بالنسخ أو النشر لتسهل عملية المشاركة بين الآخرين، ولكن لا يسمح بالاستغلال التجاري، لأن هدفنا الأساسي هو نشر المعرفة بغض النظر عن المردود المادي.

لتحميل كتبنا زوروا موقعنا: **karimeknes79.simplesite.com** / **karimeknes79.webnode.**

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

و﴿الحمد لله﴾ على نعمه المنزلة من السموات والخارجة من الأرض، ﴿رب العالمين﴾ من الجن والإنس، ﴿الرحمن﴾ بمؤمنهم وكافرهم، ﴿الرحيم﴾ بعباده المؤمنين يوم الحساب، ﴿ملك يوم الدين﴾ يوم الحساب والعقاب الذي توجب خشيته اتقاءه بمطابقة عملنا لقولنا، ﴿إياك نعبد﴾ ونتوسل إليك بعبادتنا لك وحدك إلى استجابة دعائنا إياك وحدك، ﴿وإياك نستعين﴾ على طلب الهداية إلى الدين الحق بسؤلنا لك وحدك، ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وثبتنا على الطريق الموصلة إليك ولا تزغ قلوبنا بعد أن هديتنا حتى لا نضل كالنصارى ولا تغضب علينا كاليهود، فاهدنا إلى ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، آمين يا رب العالمين.

أما بعد فإذا استعرضنا الحياة كلها لوجدنا أنها بالنسبة للمؤمن حلقات اتصال بالله ﷻ لا تنتهي، وأن أساسها هو الدعاء، فالدعاء عبادة مطلوبة شرعا في كل ظرف وزمان ومكان، لأن الدعاء ظل الإنسان وأنيسه وونيسه في كل حال وعصر ومصر ومن قبل المهد[1] وإلى ما بعد اللحد[2]، فهو رفيقه وسلاحه الدائم حيث حل وارتحل لأنه من المحال دوام الحال.

---

[1] عن رسول الله ﷺ قال: «أما إنَّ أحدَكم إذا أتى أهلَه، وقال: بسمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشيطانَ وجَنِّبِ الشيطانَ ما رزَقْتَنا، فرُزِقا ولَدًا لم يَضُرَّه الشيطانُ». رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس.

[2] عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسانُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلا من صدقةٍ جاريةٍ. أو علمٍ ينتفعُ به. أو ولدٍ صالحٍ يدعو له». رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.

هذا ولقد شغل الدعاء مكانا كبيرا ومهما من كتاب الله العزيز، ولعل القارئ يلاحظ ذلك من أول سورة فيه مرورا بطوال السور[3] وقصارها مكيها ومدنيها حتى المعوذتين[4].

ولما كان للدعاء في القرآن من كبير أهمية، فقد أثرت في هذه الصفحات أن أخط خواطري [أثناء التلاوة والتدبر والتعبد] في سورة الفاتحة في ضوء عبادة الدعاء، سائلا المولى الجليل أن يجنبني الزلل فهو قدير.

كتبه العبد الفقير

كريم امصنصف

بمكناس فجر صبيحة الجمعة 14 رمضان 1438هـ

---

[3] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ، فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ». رواه مسلم في صحيحه.

[4] عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: يا عقبةُ قل، فقلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ اللَّهِ؟ فسَكتَ عنِّي ثمَّ قالَ: يا عقبةُ قل، قلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ اللَّهِ؟ فسَكتَ عنِّي فقلتُ: اللَّهمَّ اردْهُ عليَّ، فقالَ: يا عقبةُ قل، قلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ اللَّهِ؟ فقالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقرأتُها حتَّى أتيتُ على آخرِها، ثمَّ قالَ: قل، قلتُ: ماذا أقولُ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، فقرأتُها حتَّى أتيتُ على آخرِها، ثمَّ قالَ: رسولُ اللَّهِ عندَ ذلِكَ ما سألَ سائلٌ بمثلِهما ولا استعاذَ مستعيذٌ بمثلِهما». حديث حسن صحيح أخرجه الألباني في صحيح النسائي. وعند ابن كثير مجموع طرقه عن عقبة كالمتواترة عنه تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث. (أنظر تفسير ابن كثير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 2004، م.4، ص:541، بتصرف بسيط).

سبب التأليف

كان البدء بتأمل في فقه عمل قراء السلف في ختم المصحف وافتتاحه من سورة الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿المفلحون﴾ في سورة البقرة[5]. وأما المنتهى فبتأويل الفاتحة إلى ﴿المفلحون﴾ في ضوء الدعاء لإظهار مدى تناسب الختم والبدء في القرآن الكريم.

المحتويات

المقدمة 3
سبب التأليف 5
تفسير المعوذتين 6
تفسير سورة الفلق 6
تفسير سورة الناس 10
السنة في ختم القرآن 13
تفسير سورة الفاتحة 14
تفسير فواتح سورة البقرة 27

[5] كنت حينها طالبا في السنة الأولى من السلك الثاني بالجامعة، وكان مقررا في مادة القراءات القرآنية كتاب سراج القارئ المبتدئ للعذري البغدادي، وبفضل الله أولا ثم بفضل هذا الكتاب فتح لي هذا الباب من المعرفة أثناء قراءة شرح مؤلفه لأبيات من منظومة الشاطبي، وسيأتي ذكر ذلك تحت عنوان: السنة في ختم القرآن.

تفسير المعوذتين[6]

تفسير سورة الفلق

تعريفها:

سورة الفلق مكية، عدد آياتها خمس، نزلت قبل سورة الناس وبعد سورة الفيل، ترتيبها بالمصحف ما قبل الأخيرة (113).

تسميتها:

سميت هذه السورة سورة الفلق، لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ والْفَلَقِ شق الشيء وفصل بعضه عن بعض، ومنه ﴿فالِقُ الْإِصْباحِ﴾ (سورة الأنعام، الآية 96)، والْفَلَقِ يشمل كل ما يفلقه اللَّه عن غيره، كفلق ظلمة الليل بالصبح، ويخص الفلق عرفا بالصبح ولذلك فسّر به، وتخصيصه لما فيه من تغير الحال وتبدل وحشة الليل بسرور النور، والإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالم قادر أن يزيل عن العائذ إليه ما يخافه.

مناسبتها لما قبلها:

لما أبان اللَّه تعالى أمر الألوهية في سورة الإخلاص لتنزيه اللَّه عما لا يليق به في ذاته وصفاته، أبان في هذه السورة وما بعدها وهما المعوذتان ما يستعاذ منه باللَّه من الشر الذي في العالم، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد اللَّه، كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من شر المخلوقات، وظلمة الليل، والسحرة، والحسّاد، ثم ذكر في سورة الناس الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، لذا سميت السور الثلاثة [الإخلاص وما بعدها] في الحديث بالمعوّذات[7].

---

[6] كان في الأصل تفسير مبسط للمعوذتين وضعته لتلاميذ الطور الإبتدائي من التعليم العتيق وهو منشور على النت منذ سنة تقريبا ثم ارتأيت اتماما للفائدة أن أدرجه هنا، وهو تفسير مستمد من تفسير الجلالين، وتفسير التسهيل لابن جزي، وتفسير المحرر الوجيز لابن عطية، وتفسير ابن كثير، وتفسير زاد المسير لابن الجوزي، والتفسير المنير للزحيلي، وصفوة التفاسير للصابوني، وأيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري.

[7] عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: «بينا أنا أقودُ برسولِ اللَّهِ ﷺ راحلتَهُ في غَزوةٍ إذ قالَ: يا عقبةُ قُل، فاستمعتُ، ثمَّ قالَ: يا عقبةُ قل، فاستمعتُ، ثمَّ قالَ: يا عقبةُ قل، فاستمعتُ، فقالَها الثَّالثةَ، فقلتُ: ما أقولُ؟ فقالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقرأَ السُّورةَ حتَّى ختمَها، ثمَّ قرأَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وقرأتُ معَهُ حتَّى ختمَها، ثمَّ قرأَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقرأتُ معَهُ حتَّى ختمَها، ثمَّ قالَ: ما تعوَّذَ بمثلِهنَّ أحدٌ». حديث صحيح أخرجه الألباني في صحيح النسائي.

موضوعها:

تضمنت السورة الاستعاذة من شر المخلوقات، وبخاصة ظلمة الليل، والسواحر والنمامين، والحسدة، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس، وحمايتهم من شر ذوات السموم، وشر الليل إذا أظلم، لما فيه من مخاوف ومفاجأة، وبخاصة في البراري والكهوف.

سبب نزول المعوذتين:

وَروى الْبُخَارِيُّ فِي "كِتَابِ الطِّبِّ" مِنْ صَحِيحِهِ: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُحر، حَتَّى كَانَ يُرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ [قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ، إِذَا كَانَ كَذَا] فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، أَعْلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا استفتيتُه فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيِّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّه؟ قَالَ: لَبيد بْنُ أَعْصَمَ [رَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيق حَليف ليهُودَ، كَانَ مُنَافِقًا] وَقَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشط ومُشاطة. قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُف طَلْعَة ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَان". قَالَتْ: فَأَتَى [النَّبِيُّ ﷺ] الْبِئْرَ حَتَّى اسْتَخْرَجَهُ فَقَالَ: "هَذِهِ الْبِئْرُ الَّتِي أُرِيتُهَا، وَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعة الحنَّاء، وَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ". قَالَ: فَاسْتَخْرَجَ. [قَالَتْ]. فَقُلْتُ: أَفَلَا؟ أَيْ: تَنَشَّرْتَ؟ فَقَالَ: "أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي، وَأَكْرَهُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا». والجف: قشر الطلع، والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقِّي عليها.

فضل المعوذتين:

روى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُر مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾».

المفردات اللغوية:

﴿أَعُوذ﴾ ألجأ.

﴿الفَلَق﴾: "الصبح تقول العرب: هو أبين من فلق الصبح، وأصله من فلقتُ الشيء أي شققته، ومنه ﴿فالِقُ الْإِصْباحِ﴾ (سورة الأنعام، الآية 96)"[8].

[8] صفوة التفاسير للصابوني، دار الفكر، الطبعة الثانية 1998، ج.3، ص: 597، بالتصرف.

﴿النفاثات﴾ "النفث: شبه النفخ دون تفل ريق"[9].

الشرح والبيان:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ {1}

"أي قل يا محمد ألتجيء وأعتصم برب الصبح الذي ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام. قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجيء الفرج بعد الشدة، فكما أن الإنسان يكون منتظراً لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاة"[10].

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ {2}

"يعم كل موجود له شر"[11]، أَيْ: "مِنْ شَرِّ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ"[12]؛ "من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مؤذٍ خلقه الله تعالى"[13].

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ {3}

"أَيْ الْقَمَر إِذَا غَابَ واللَّيْل إِذَا أَظْلَمَ"[14]. وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «أن النبي ﷺ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِيذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ» [15]. "فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن"[16]. قال الرازي: "وإنما أُمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارقُ والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث"[17].

---

[9] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2002، ص: 2013.

[10] صفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 597-598، بالتصرف.

[11] المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ص: 2012.

[12] تفسير ابن كثير، م.4، ص:542.

[13] صفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 598.

[14] أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى 2002، ج.2، ص: 1796، بتصرف بسيط.

[15] الحديث رواه الترمذي في سننه بإسناد حسن صحيح.

[16] صفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 598.

[17] التفسير الكبير مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة 1420 هـ، ج.32، ص 374.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ {4}

أي السَّوَاحِر تَنْفُث ﴿فِي الْعُقَد﴾ الَّتِي تَعْقِدهَا فِي الْخَيْط تَنْفُخ فِيهَا بِشَيْءٍ تَقُولهُ مِنْ غَيْر رِيق. "كَبَنَاتِ لَبِيد بن الأعصم اليهودي كن ساحرات وهن اللواتي سحرن [مع أبيهم النبي] ﷺ وعقدن له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية بعدد العقد، هي المعوذتان، فشفى الله النبي ﷺ"[18]. "فيستعاذ من مثل عملهن وهو السحر"[19].

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ {5}

أي أَظْهَر حَسَدَهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ كَلَبِيد الْمَذْكُور مِنْ الْيَهُود الْحَاسِدِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. "والحسد هو أن يحب الإنسان زوال تلك النعمة عن أخيه المسلم لرغبته فيها رجاء انتقالها إليه. [والحسد أخس الطبائع]، وأولُ معصية عُصِيَ الله بها في السماء حَسَدُ إبليس لآدم، وفي الأرض حسد قابيل لهابيل"[20].

نكت:

قال ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: "قال بعض الحذاق هذه السورة خمس آيات وهي مراد الناس بقولهم للحاسد الذي يخاف منه العين: الخمسة على عينك، وقد غلطت العامة في هذا فيشيرون في ذلك بالأصابع لكونها خمسة"[21].

وقال العلماء: لا يضرّ السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته، وإنما بفعل اللَّه وتأثيره، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط، قال اللَّه تعالى عن السحر: ﴿وَما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة، الآية 102)، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل، فإنه يطلب شرعا الحذر والاحتياط وتجنب هذه الأسباب الظاهرية بقدر الإمكان.

---

[18] المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ص: 2013.

[19] التسهيل لعلوم التنزيل تفسير ابن جزي الغرناطي الأندلسي، تحقيق رضا فرج الهمامي، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى 2003، ج.4، ص: 440، بتصرف بسيط.

[20] نفسه، ج.4، ص: 441، بتصرف بسيط.

[21] المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ص: 2013.

تفسير سورة الناس

التعريف بسورة الناس:

مكية آياتها ست، ترتيبها في المصحف الاخيرة (114)، نزلت بعد سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص.

تسميتها:

سميت سورة الناس لافتتاحها بقول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ..﴾ وتكررت كلمة النَّاسِ فيها خمس مرات. وقد نزلت مع ما قبلها، وهي مكية عند الأكثر، وقيل: مدنية. كما تقدم وعرفنا وجه مناسبتها لما سبقها.

وهي آخر سورة في القرآن، "وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدء بالفاتحة، ليجمع بين حسن البدء، وحسن الختم، وذلك غاية الحسن والجمال، لأن العبد يستعين بالله ويلتجىء إليه، من بداية الأمر إلى نهايته"[22].

موضوعها:

اشتملت هذه السورة، وهي ثاني المعوذتين على الاستعاذة باللَّه تعالى والالتجاء إلى ربّ الناس الملك الإله الحق من شرّ إبليس وجنوده الذين يغوون الناس بوسوستهم.

فضلها:

عن عقبة بن عامر عن النّبي ﷺ قال: «لقد أنزل اللَّه علي آيات لم ير مثلهن: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إلى آخر السورة»[23].

وقد عرفنا أن هذه السورة وسورة الفلق والإخلاص تعوذ بهن رسول اللَّه ﷺ من سحر اليهود. وقيل: إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقشتان، أي تبرئان من النفاق.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[24].

---

[22] صفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 599.

[23] حديث صحيح رواه الترمذي في سننه وقال هذا حديث حسن صحيح.

[24] حديث صحيح أخرجه الألباني في صحيح أبي داود.

المفردات اللغوية:

﴿الوسواس﴾ الشيطان الموسوس، "مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي"[25] وحديث النفس.

﴿الخناس﴾ "الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويختفى ويتأخر، وسمي الشيطان (خناسا) لأنه يتوارى ويختفي إذا ذكر العبد ربه، فإذا غفل عن ذكر الله، عاد فوسوس له"[26].

الشرح والبيان:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ {1}

﴿قُلْ أَعُوذ﴾ أتحصن وأعتصم وألتجئ وأستجير وأحتمي ﴿بِرَبِّ النَّاس﴾ "خَالِقِهمْ وَمَالِكِهمْ"[27]، فخصّ الناس هاهنا بأنه ربّهم، وهو ربّ كلّ شيء لأنهم معظّمون متميّزون على غيرهم. ولأنه لمّا أمر بالاستعاذة من شرّهم أعلم أنه ربّهم، ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرّهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ {2}

"ولمّا كان في الناس ملوك قال ﷻ : ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي سيدهم"[28].

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ {3}

ولمّا كان فيهم من يعبد غيره قال ﷻ : ﴿إِلهِ النَّاسِ﴾ "أي معبود الناس بحق إذ لا معبود بحق سواه"[29].

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ {4}

﴿مِنْ شَرّ الْوَسْوَاس﴾ الشَّيْطَان إبليس يوسوس في الصدور وفي القلوب ﴿الْخَنَّاس﴾ فإذا ذكر الله خنس أي كف عن الوسوسة وتأخر عن القلب عند ذكر الله تعالى.

---

[25] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ج.4، ص: 444. وصفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 599.

[26] صفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 599، بالتصرف.

[27] أيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري، ج.2، ص: 1797.

[28] نفسه، ج.2، ص: 1797، بالتصرف.

[29] نفسه، ج.2، ص: 1797.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ {5}

﴿الَّذِي يُوَسْوِس فِي صُدُور النَّاس﴾ "أي في قُلُوبهمْ إِذَا غَفَلُوا عَنْ ذِكْر اللَّه تعالى"[30].

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ {6}

﴿مِنْ الْجِنَّة وَالنَّاس﴾ أي هذا ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، هو من ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (سورة الأنعام، الآية 112)، "فالآية استعاذة من شر الإنس والجن جميعا"[31].

ما يستفاد من الآيات :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ {1} مَلِكِ النَّاسِ {2} إِلَهِ النَّاسِ {3}﴾ "هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية والملك والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ولا يألوه جهداً في الخيال، والمعصوم من عصمه الله. وقد ثبت في الصحيح [لمسلم عن عبد الله ابن مسعود] أنه [ﷺ قال]: «ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»"[32].

---

[30] أيسر التفاسير لأبي بكر جابر الجزائري، ج.2، ص: 1797.

[31] صفوة التفاسير للصابوني، ج.3، ص: 600.

[32] تفسير ابن كثير، م.4، ص:544.

السنة في ختم القرآن

قال الإمام العذري البغدادي[33] : (أفضل الأعمال افتتاح القرآن مع ختمه، أي في حال ختمه للقرآن يشرع في أوله، فهو حال في هذه مرتحل من هذه [...]، [وفي] حديث أخرجه أبو عيسى الترمذي رضي الله عنه قال: «قال رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْحَالُّ، الْمُرْتَحِلُ»[34]، وقد ضعف واختلف في تفسيره على تقدير صحته، فأوله القراء، وقد روى التفسير فيه مدرجا، فقيل: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ؟ قَالَ: الخاتم المفتتح». يعني للقرآن [...] في ذلك العمل الذي عبر عنه بالحال والارتحال، وهو وصل آخر كل ختمة بأول الأخرى، [وعليه كان عمل السلف الصالح من القراء] إذا فرغوا من الختمة وكبروا في آخر سورة الناس أردفوا [اتبعوا] مع قراءة سورة الحمد قراءة أول سورة البقرة حتى يصلوا إلى قوله تعالى: ﴿أولئك هم المفلحون﴾. [...] وروي عن ابن عباس وعن أبي بن كعب رضي الله عنهم قال: «كان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ قرأ الفاتحة إلى قوله: ﴿المفلحون﴾»[35]).

وفي هذا قال الإمام الشاطبي في منظومته حرز الأماني ووجه التهاني:

وما أفضل الأعمال إلا افتتاحه *** مع الختم حلا وارتحالا موصلا
وفيه عن المكين تكبيرهم مع الـ *** خواتم قرب الختم يروى مسلسلا
إذا كبروا في آخر الناس أردفوا *** مع الحمد حتى المفلحون توسلا

---

[33] سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي، للإمام أبي القاسم علي بن عثمان بن الحسن القاصح العذري البغدادي، دار الفكر، ط 2002، ص: 189، بالتصرف.

[34] وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْحَالُّ، الْمُرْتَحِلُ ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ؟ قَالَ: صَاحِبُ الْقُرْآنِ يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَهُ، وَمِنْ آخِرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَوَّلَهُ كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ». تَفَرَّدَ بِهِ صَالِحٌ الْمُرِّيُّ وَهُوَ مِنْ زُهَّادِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، إلا أَنَّ الشَّيْخَيْنِ لَمْ يُخَرِّجَاهُ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. (المستدرك على الصحيحين للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1990، ج.1، ص: 757).

[35] عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛ افتتح من الْحَمْدِ، ثم قرأ البقرةَ إلى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ثم دعا بدعاءِ الختمِ، ثم قام». حديث ضعيف أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة.

تفسير سورة الفاتحة

سورة الفاتحة سميت بذلك لأنه يستفتح بها الكتاب خطا وتلاوة، وبها كذلك تفتتح القراءة في الصلوات، فهي اسم على مسمى إذ ناسب اسمها مطلعها، لقوله تعالى: ﴿الحمد لله﴾ إذ قيل في الأثر: «كل أمر ذي بال لا يبدأ بالحمد لله فهو أقطع»[36]، ومن أسمائها أم القرآن " *لأن معاني كل الكتب [التوراة والزبور] مجموعة في القرآن ومعاني القرآن مجموعة في الفاتحة*"[37]، وكذلك من أسمائها الصلاة لأنها شرط فيها لقول رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[38]، وتسمى أيضا الدعاء لبدئها به وانتهائها به.

قال ﷻ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لقد افتتح ﷻ سورة الفاتحة بالثناء على ذاته وأثبت صفات المدح لها، إذ اللام الواقعة بين معنى الحمد وذات الله هي للاستحقاق في قوله: ﴿الحمد لله﴾، وفيه عرفان بالنعمة الأبدية التي لا تنفذ. والحمد لله لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر فتقديره (قولوا الحمد لله) فأضمر قولوا تعليما للعباد.

وفي دعاء الحمد شمول للمحامد كلها وشمول للأوقات أجمعها، أما شموله للمحامد كلها فبدلالة دخول الألف واللام في ﴿الحمد﴾ لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، وأما شموله للأوقات كلها إذ في الحمد تعلق بالماضي والحاضر والمستقبل، أما تعلقه بالماضي فهو أن يقع شكرا على النعم المتقدمة وأما تعلقه بالحاضر فهو يوجب تجدد النعم في الزمن المستقبل لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 7). ولهذا تؤكد السنة على دعاء الحمد «أفضل الدعاء الحمد لله»[39]، لقول الرسول ﷺ: «الحمد لله تملأ الميزان»[40]، ولقوله ﷺ أيضا: «ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتب له بها ثلاثون حسنة وحط عنه ثلاثون سيئة»[41]. والحمد صفة مشتقة من اسم الله تعالى الحميد فالحمد لله تعالى

---

[36] حديث حسن روي موصولا ومرسلا، ورواية الموصول إسنادها جيد، رواه النووي في الأذكار عن أبي هريرة، وفي روايةٍ: «بالحمدِ فَهوَ أقطعُ»، وفي روايةٍ: «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجدم»، وفي رواية: «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأُ فيهِ ببسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ فَهوَ أقطعُ».

[37] قارن بتفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل.

[38] الحديث رواه الشيخان في صحيحيهما عن عبادة بن الصامت.

[39] رواه الترمذي وحسنه الحافظ ابن حجر.

[40] الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري.

[41] الحديث رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة بإسناد صحيح.

ثناء على المحمود بالفضيلة وهو أخص من المدح و"أعم من الشكر لأن الشكر لا يكون إلا جزاء على نعمة والحمد يكون جزاء كالشكر ويكون ثناء ابتداء"[42]، ولهذا الحمد رفع بالابتداء ولله خبره، فهو أي الحمد شكر وزيادة لأن الحمد فيه اظهار النعمة والاشادة بها، والمعنى المحمود على كل حال، لقول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا رأى ما يكره قال الحمد لله على كل حال»[43]. وفي الدعاء المأثور "يقال الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه". وهذا لا يصح لأن فيه كراهة لما قدره الله على الإنسان ومن أركان الإيمان ومقتضياته الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

وفي قوله تعالى: ﴿لله رب﴾ توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، أي توحيد المعبود حتى لا نقع في الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب نملة سوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء، فنسمع من دعاء العجائز قولهم: "*الله يجعل سيدي ربي يرضى عليك*"، فيشركون مع الله ربا أكبر منه وهذا شرك بالله الواحد الصمد والعياذ بالله [وحاكي الكفر ليس بكافر].

و﴿لله﴾ اسم لا يجوز أن يسمى به غير الله، ﴿رب﴾ هو الإله لاختصاصه لله تعالى، ولا يذكر هذا الاسم في حق المخلوق إلا بالإضافة، فيجوز قول ربي بمعنى سيدي في الإضافة، ولكن لا يجوز قول يا ربي عند مناداة سيده فلا ينادى بيا رب إلا الله. والصفة برب من تحقيق القدرة على تدبير ما ملك من الجن والإنس، فقولنا "رب" يتضمن معنى الملك والتدبير، فلا يكون إلا مطاعا، كما تقتضي معنى المصلح الهادي إلى الصراط المستقيم.

﴿رب العالمين﴾ "رب صفة لاسم الله تعالى لأنه مجرور بالباء ومضاف إلى العالمين، والعالمين مضاف إليه بالياء"[44].

والمناسبة بين قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ وقوله تعالى: ﴿الرحمن﴾ هو أن الله ﷻ لما أثبت ربوبيته للعالمين من الجن والإنس ناسب أن يعقب على ذلك بوصف نفسه تعالى بالرحمن بمؤمنهم وكافرهم، لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف، الآية 156)،

---

[42] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ج.1، ص: 85.

[43] قال الألباني في صحيح الجامع: حديث صحيح، وفي رواية ابن ماجه: «إذا رأى ما يكره يقول» وحسنه الألباني.

[44] كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، بتعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية 1989، ص: 453، بالتصرف بسيط.

وفي قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ في ﴿الرحمن﴾ من المبالغة ما ليس في ﴿الرحيم﴾، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فالرحمن على وزن فعلان وهو بناء للسعة والشمول بمعنى المبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام، فالرحمن تدل على رحمة الله في الدنيا، والدنيا زائلة ورحمته بأهلها تعم كافرهم ومؤمنهم. و﴿الرحيم﴾ على صيغة فعيل بمعنى الصفة الدائمة، فالرحيم تدل على رحمة الله في الأخرة وهي الدار الباقية حيث خص برحمته أهلها المؤمنين. ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ تقديم للعام وتأخير للخاص، فالرحمن أعم من ﴿الرحيم﴾، لأن ﴿الرحمن﴾ عام في رحمته المؤمنين والكافرين في الدنيا، و﴿الرحيم﴾ أخص من ﴿الرحمن﴾، لأن ﴿الرحيم﴾ خاص في رحمته المؤمنين في الأخرة، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، الآية 43)، ولقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية 117)، ولما روي عن رسول الله ﷺ: «أن الرحمن في الدنيا والرحيم في الأخرة».

وقدم ﴿الرحمن﴾ على ﴿الرحيم﴾ لاختصاصه بالله، فلا يوصف بالرحمن غير الله، ويوصف بالرحيم غيره. فالرحمن الرحيم صفتان من الرحم ومعناهما الإحسان وهما أيضا اسمان، وأما الجمع بينهما ففيه معنى وهو "*أن الرسول ﷺ لما أمر عليا كرم الله وجهه أن يكتب وثيقة صلح الحديبية طلب منه افتتاح الرسالة بالبسملة [باسم الله الرحمن الرحيم]، قال سهيل ابن عمرو لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم، فقال أكتب باسمك اللهم*"[45].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «تهجد رسول الله، ذات ليلة بمكة فجعل يقول في سجوده يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون كان محمد يدعوا إلها واحدا فهو الآن يدعو إلهين اثنين الله والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء، الآية 110)».

---

[45] قال الزهريُّ في حديثِه: «فجاءَ سهيلُ بنُ عمرٍو فقال: هاتِ اكتُبْ بينَنَا وبينَكم كتابًا، فدعا النبيُّ ﷺ الكاتبَ، فقال النبيُّ ﷺ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. قال سهيلٌ: أَمَّا الرحمنُ فواللهِ ما أدري ما هو، ولكن اكتُبْ باسمِك اللهمَّ، كما كنتَ تَكْتُبُ. فقال المسلمون: واللهِ لا نَكْتُبُها إلا بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. فقال النبيُّ ﷺ: اكتُبْ باسمِك اللهمَّ». رواه البخاري في صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

وأخرج ابن مردويه وغيره[46] عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم فدعا فقال في دعائه يا الله يا رحمن، فقال المشركون أنظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعوا إلهين وهو يدعوا إلهين، فأنزل الله الآية: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (سورة الاسراء، الآية 110)». فالآية نزلت في الجهر بالدعاء في الصلاة. وهكذا نرى في الدعاء بالرحمن الرحيم توحيد للأسماء وتأدبا في الدعاء.

ولما أخبر الله ﷻ في قوله: ﴿رب العالمين﴾ أنه ملك الدنيا دل بقوله: ﴿ملك يوم الدين﴾ على أنه مالك الأخرة، وقد خص ﴿يوم الدين﴾ من ﴿العالمين﴾ لأنه ينفرد يومئذ بالحكم في خلقه كافرهم بالرحمن الرحيم ومؤمنهم بالرحمن الرحيم.

قوله: ﴿ملك﴾ و"ملك" تعني استفاضة الملك وسعة المقدور لمن له السياسة والتدبير، و"مالك" تعني استحقاق تصريف الشيء لمن هو أولى به من غيره. وقراءة ﴿ملك﴾ بغير ألف من الملك وهي الأظهر في المدح، لأن "كل مَلِكٍ مَالِكٌ وليس كل مَالِكٍ مَلِكاً"[47]، "فالملك أعظم من المالك إذ قد يوصف كل أحد بأنه المالك لماله وأما الملك فهو سيد الناس. كما أن "ملك" لا تقتضي حذفا ومالك تقتضي حذف الأمر "مالك الأمر يوم الدين" أو حذف مجيء أي "مالك مجيء يوم الدين" والحذف الخاص على خلاف الأصل وهو عام"[48].

وفي قوله: ﴿يوم الدين﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: «كل شيء في القرآن الدين فهو الحساب»[49]، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (سورة الصافات، الآية 53). وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»[50]، فالملك لله وحده يوم القيامة يحاسب فيه عباده فيعذب الكافرين ويرحم المؤمنين، ولهذا ناسب تقديم قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ على قوله: ﴿ملك يوم الدين﴾، لكثرة رحمة ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (سورة طه، الآية 5) على عذابه، وفي هذا السياق روي عن رسول ﷺ أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش [وفي لفظ: فهو عنده على العرش]، أن رحمتي تغلب

---

[46] أخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري من رواية ابن عباس بإسناد ضعيف.

[47] المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ص: 41.

[48] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ج.1، ص: 87، بالتصرف.

[49] الآثر رواه أحمد في مسنده.

[50] الحديث رواه مسلم في صحيحه عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

غضبي [وفي رواية: أن رحمتي سبقت غضبي]»[51]، «*وذلك أن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله، فقال تعالى: يرحمك الله، فسبقت رحمته غضبه*»[52]، ولهذا قدم ﴿الرحمن﴾ على ﴿ملك يوم الدين﴾ لأن رحمة الله سبقت غضبه.

والمناسبة بين قوله ﷻ: ﴿ملك يوم الدين﴾ وقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ هي أنه بعد قولنا: ﴿ملك يوم الدين﴾ مؤكدين اقرارنا بملكه تعالى يوم القيامة مستذكرين الرهبة والرغبة فيه فلا نجد سواه سبحانه، فنفصح بإخلاص وخضوع نتيجة لما في أنفسنا من تصور بتقديم ما يدل عليه وهو ﴿ك﴾ كاف ضمير الخطاب فنقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، وفي ذلك دافع روحي لتجريد النفس من كل نوازع تشغلها عنه سبحانه وتعالى، لقول الرسول ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، وأعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»[53]، فنتهيأ مطمئنين لطلب الهداية فنتوجه بالدعاء ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

وفضلا عن ذلك فقد أوجب الله ﷻ قراءة سورة الفاتحة في كل صلاة لقول رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[54]، وعليه فالمصلي عندما يكون مقبلا على الله وحده لا يعرض له استحضار أحد غيره ولم يخطر بباله أحد سوى الله سبحانه لعظمة من وقف بين يديه مبتهلا له داعيا إياه فيقدم ما كان حاضرا في قلبه فيقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ليطابق بذلك قوله لعمله.

وفي قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ اللفظ جاء على سبيل الاخبار إلا أن معناه الدعاء، وجماع معاني الفاتحة في ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفها الأول له تعالى وهو ﴿إياك نعبد﴾، ونصفها الثاني لعبده وهو ﴿إياك نستعين﴾، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول، قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله تعالى حمدني عبدي، وإذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله تعالى أثنى

---

[51] الحديث في الصحيحين من رواية أبي هريرة واللفظان له فيهما.

[52] أخرجه أحمد في المسند وأخرجه الترمذي أيضا، وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لمَّا خلَق اللهُ آدَمَ عطَس، فألهَمه ربُّه أنْ قال: الحمدُ للهِ، فقال له ربُّه: يرحَمُك اللهُ، فلذلك سبَقَتْ رحمتُه غضَبَه». الحديث صحيح أخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب لابن حبان.

[53] حديث حسن أخرجه الألباني في صحيح الترمذي من رواية أبي هريرة.

[54] سبق تخريجه، ص: 14، حاشية رقم 38.

علي عبدي، وإذا قال ﴿ملك يوم الدين﴾ قال مجدني عبدي [وقال مرة فوض إلي عبدي]، فإذا قال ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[55].

"وفي حديث قراءة الفاتحة «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» أراد بالصلاة هاهنا القراءة تسمية للشيء ببعضه، وقد جاءت مفسرة في الحديث، وهذه القسمة في المعنى لا [في] اللفظ لأن نصف الفاتحة ثناء ونصفها مسألة ودعاء، وانتهاء الثناء عند قوله: ﴿إياك نعبد﴾ ولذلك قال في: ﴿وإياك نستعين﴾ هذه الآية بيني وبين عبدي"[56].

وفي تقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها والاستعانة وسيلة إليها، كما ورد في الدعاء المأثور: «اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك»[57]. ولأن ﴿إياك نعبد﴾ متعلق بألوهيته واسمه الله، ﴿وإياك نستعين﴾ متعلق بربوبيته واسمه الرب، قدم ﴿إياك نعبد﴾ على ﴿إياك نستعين﴾ كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة. ولأن ﴿إياك نعبد﴾ قسم الله فكان في الشطر الأول الذي هو الثناء على الله تعالى لكونه أولى به، ﴿وإياك نستعين﴾ قسم العبد فكان في الشطر الذي يليه وهو ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة.

هذا باعتبار الاستعانة تخص العبادة ﴿إياك نعبد﴾، لأن العبادة هي المقصودة لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات، الآية 56)، ولقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (سورة البينة، الآية 5)، فالاستعانة هنا ﴿وإياك نستعين﴾ وسيلة إليها، وعليه فإن معنى الآية هو نسألك المعونة على عبادتك، لما ورد في الدعاء المأثور: «اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك». وأما باعتبار الاستعانة في الآية تعم العبادات وغيرها فيكون في تقديم العبادة على الاستعانة إشارة لتقديم السبب على المسبب، إذ العبادة يتوسل بها في رفع الدعاء إلى الله، لقوله ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ

---

[55] رواه مسلم في صحيحه، وأخرجه النسائي، والترمذي، وأبي داود، وأحمد ﷺ بإسناد صحيح.

[56] النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، دار الفكر، ط 2000، م.4، ص: 61.

[57] الحديث رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، وقال أحمد شاكر في تخريجه: ثابت صحيح. ورواه النووي في رياض الصالحين وكتاب الأذكار بإسناد صحيح من رواية معاذ بن جبل بلفظ: « أعني ».

الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سورة فاطر، الآية 10)، فالعبادة صلة لطلب الحاجة ووسيلة، فيكون تقديم الوسيلة [العمل الصالح من العبادات] قبل طلب الحاجة مع الاستعانة بالكلم الطيب أوفق للاستجابة واكد لها. و"قدم الحمد والثناء على الدعاء لأن تلك السنة في الدعاء وشأن الطلب أن يأتي بعد المدح وذلك أقرب للإجابة"[58]. فمن يتوجه بلسان الحال والمقال إلى ذو العزة والجلال الذي يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقة، ومجيب الدعوات وإن عظمت، متقربا إليه بالكلم الطيب مع الاعتراف لله بالخضوع إليه قضيت حاجته، لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (سورة غافر، الآية 60).

وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون سواه في قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، لأنه جعل الدعاء في مصاف أعظم الطاعات وأجل العبادات مثل الصلاة، فما الصلاة في حقيقتها إلا دعوات، فالصلاة دعاء والدعاء صلاة لقول رسول الله ﷺ: «أن الدعاء هو العبادة»[59]، وعن أنس رضي الله عنه مرفوعا: «الدعاء مخ العبادة»[60]. وتفسير الآية ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ هو نخصك يا الله بالعبادة ونخصك بطلب الاعانة فلا نعبد أحد سواك، لك وحدك نذل ونخضع ونستكين ونخشع وإياك ربنا نستعين ولا يملك القدرة على عوننا أحد سواك.

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم أو غيبتهم كطلبها من الأموات [لموتهم وانقطاعهم عن الحياة] كان ضلالا وباطلا أو كان فاعله مشركا بالله تعالى في هذه العبادة التي لا تنبغي لأحد سواه، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة غافر، الآية 65)، وللحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كنت خلف رسول الله ، يوما قال يا غلام إني أعلمك

---

[58] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ج.1، ص: 88.

[59] حديث صحيح أخرجه الألباني في صحيح ابن ماجه وصحيح الأدب المفرد من رواية النعمان بن بشير.

[60] حديث صحيح أخرجه جار الله الصعدي في النوافح العطرة، وهو متواتر عند الشوكاني في الفتح الرباني بلفظ: «أن الدعاء مخ العبادة».

كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده اتجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ...»[61].

وفي دعاء الثناء في هذه الآية قدم معمول الفعل ﴿إياك﴾ على الفعل ﴿نعبد﴾ و﴿نستعين﴾ لابراز مدى الاهتمام والعناية بضمير الفصل الكاف في ﴿إياك﴾ الذي قصد في تقديمه معنى الحصر وتخصيص العبادة بالمخاطب جلا وعلا والاستعانة به، والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة، وفي تقديم ﴿إياك﴾ فضلا عن معنى الاختصاص دلالة الإخلاص في العبادة والاستعانة، أي نخصك بخالص العبادة والاستعانة، أضف إلى ذلك أن تأخير العبادة والاستعانة دال على اطلاقهما دون تخصيصهما بنوع معين من العبادة أو الاستعانة، لذا فقد شمل كل أشكال العبادة والاستعانة والله اعلم.

وإذا أمعنا النظر في الآية أدركنا أن في تقديم المفعول الضمير ﴿إياك﴾ على ﴿نعبد﴾ و﴿نستعين﴾ وكذا في تكراره من البلاغة في التأكيد ما ليس في الاكتفاء بذكر الضمير مرة واحدة، لأن في تكرار التصريح به زيادة في اثبات معنى الاختصاص وتوكيده والاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة.

ومعنى النون في قوله تعالى: ﴿نعبد﴾ و﴿نستعين﴾ نون الجمع مع أن الداعي واحد، لأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم في الصلاة فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير.

وإنك تجد في هذه السورة لطائف أداب الدعاء، فقد بدأت بالحمد والثناء لله الحقيقة بهما وذكر الصفات الموجبة واللازمة لذلك بخطاب الغيبة، وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر[62] من الله ﷻ بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وارشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك، حتى إذا جاء دعاء العبادة والاستعانة وتخصيصه بالله تعالى بأسلوب الخبر انتقل إلى خطاب المواجهة المباشر بضمير كاف الخطاب في ﴿إياك﴾، وفي الانتقال من الغيبة إلى

---

[61] حديث صحيح رواه الترمذي في سننه عن عبد الله بن عباس وقال حديث حسن صحيح وأخرجه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع.

[62] هذا على أن أول الفاتحة هو ابتداء كلام الله، لا على اضمار القول تعليما للعباد، أي قولوا ﴿الحمد لله﴾، فلفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، ولابد من اضمار القول في ﴿إياك نعبد﴾. (التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، ج.1، ص: 84، بالتصرف).

المخاطبة ايحاء يدل على مزيد التقرب والإكرام، ولاسيما أن العبد قد تدرج بعد الثناء على الله بذكر الحمد والصفات العظيمة الجليلة من منزل إلى آخر حتى وصل من خلال ذكره لصفاته إلى مناجاته بها، فكان خليقا بالعبد مخاطبة المتفرد بهذه الصفات الرحمانية بخطاب الحضور بين يدي الله تعالى ليدل على اخلاصه وتخصيصه بها فيقول: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، ويستمر في الآيات تتابع الحضور في الخطاب ويتلازم مع طلب الهداية وذكر النعمة بقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾، فأسند النعمة إليه لفظا تعظيما للمدعو بطلب الهداية للدين الحق، وروى عنه الغضب تحننا ولطفا، ولما في اسناد الغضب والاضلال إليه سبحانه وتعالى من مخالفة لأدب خطابه تعالى جاء الانتقال في الكلام إلى أسلوب الغيبة مرة أخرى مراعاة لأداب دعائه.

والمناسبة بين قوله تعالى: ﴿وإياك نستعين﴾ وقوله سبحانه: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ هي أنه بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ وأعقبه بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ من قبيل ذكر العام قبل الخاص، فبعد ذكر العبادات عموما ذكر عباده الاستعانة بالخصوص تنبيها على كونها عبادة تخصه وحده، وفي ذلك أيضا تلميح إلى علو مكانتها وعظمة شأنها، كما لا يخفى ما في ذلك من نفي كون الاستعانة خاصة بالعبادات وحدها كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان، بل هي تشمل جميع أحوال المسلم قولا وعملا ويتبين ذلك باتباع الاستعانة بقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، فيكون المعنى إياك نستعين على عبادتك وإياك نستعين في طلب الهداية إلى الطريق الموصلة إليك.

وعليه فإن للعبادة هنا معنيين عام وخاص، فالمعنى الخاص هو طلب الاستعانة فيما يخص أداء حقوق الله، ولهذا قدم على المعنى العام الذي هو طلب الاستعانة فيما يخص تحصيل حقوق العباد، وبهذا تكون مخالفة عادات العرب في كلامهم أي تقديم العام وتأخير الخاص جرت مجرى تقديم حقوق الله على حقوق النفس، وهذا لا يخالف قاعدة تقديم حقوق الناس على حقوق رب الناس.

وفي قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ طلب الهداية إلى الدين الحق المؤدي إلى استيجاب الثواب واستدفاع العقاب يوم الحساب.

﴿اهدنا﴾ اهدنا هنا دعاء بالهدى، ومعنى سؤال المسلمين الهداية وهم مهتدون هو الثبات على الهدى إلى يوم الممات، أي ثبتنا على الهدى أو زدنا هداية وهو ارتقاء في المقامات.

وفي هذه الآية أخر معمول الفعل ﴿اهد﴾ وهو الضمير ﴿نا﴾ الدال على الجماعة تعظيما للمدعو سبحانه وتعالى، إذ في النون شبهة تعظيم العبد لذاته بين يدي الله وتقديمها على ذكر الله وهذا مما لا يجوز في آداب الدعاء.

و﴿الصراط﴾ ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقا مستقيما، سهلا، ومسلوكا، واسعا، موصلا إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطا.

وعرض ﴿الصراط﴾ بالألف واللام لأنه في مقام الدعاء والطلب، عكس باقي المواضع الذي جاء فيها ﴿صراط﴾ نكرة لأنه في مقام الاخبار من الله تعالى عن هداية إلى صراط مستقيم وهداية رسوله ﷺ إليه.

فذكر ﴿الصراط﴾ مفردا معرفا تعريفين، تعريف بالألف واللام ﴿الصراط﴾، وتعريف بالإضافة ﴿الصراط المستقيم﴾، تفيد دلالته التخصيص والتعيين للصراط المطلوب، أي أنه صراط واحد، بمعنى صراط الله والطريق إلى الله المعهود في النفوس المشخص في الأذهان الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته وجعله طريقا إلى رضوانه وجنته.

﴿المستقيم﴾ أي الجاري على سنن، وإن كل مستقيم صحيح صواب ولا عكس.

﴿الصراط المستقيم﴾ أي الدلالة إلى الطريق السهل الصواب، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلا، صراطا مستقيما وعند رأس الصراط داع يقول استقيموا على الصراط ولا تعوجوا، وفي رواية وعند باب الصراط، ثم فسره فأخبر ﷺ الصراط هو الإسلام ... وإن الداعي على رأس الصراط هو القرآن»[63].

وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إرشاد إلى اكمل أحوال السائل وهو أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المسلمين بقوله: ﴿اهدنا﴾، لأنه أنجح للحاجة وأنجع

---

[63] الرواية الأولى عن عبد الله بن مسعود تخريج الإمام أحمد ورزين بسند صحيح، والثانية رواية عن النواس بن سمعان تخريج السيوطي في الجامع الصغير وأشار إلى صحته، والحديث صحيح أخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب لابن حبان من رواية عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «ضَربَ اللهُ مثلًا صِراطًا مستقِيمًا، وعَنْ جَنَبَتِي الصِّراطِ سُّورانِ فيهِما أبوابٌ مفتحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخاةٌ، وعِند رأسِ الصِّراطِ داعٍ يقولُ: استقِيمُوا على الصِّراطِ ولا تَعْوَجُّوا؛ وفَوقَ ذلكَ داعٍ يدعُو كلَّما هَمَّ عبدٌ أنْ يفتحَ شيئًا من تلكَ الأبوابِ؛ قال: ويْلَكَ! لا تفتحْه، فإنَّك إنْ تَفْتَحْه تَلِجْهُ، ثمَّ فَسَّرَه، فأخبرَ أنَّ الصِّراطَ هو الإسلامُ، وأنَّ الأبوابَ المُفتَّحةَ محارمُ اللهِ، وأنَّ السُّتُورَ الْمُرخاةَ حُدودُ اللهِ، والدَّاعِي على رأسِ الصِّراطِ هو القرآنُ، والدَّاعِي من فوقِه هو واعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مُؤْمِنٍ».

للإجابة ولهذا أرشدنا الله إليه لأنه الأكمل، لقول رسول الله ﷺ: «من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء»[64]. فهو الأكمل من حيث الثواب ومن حيث كمال الإيمان، لقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[65].

كما أن في لفظ ﴿اهدنا﴾ دعاء بظهر الغيب للمسلمين فيستجاب دعاءه بفضل ذلك، فعن الرسول ﷺ قال: «دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل»[66].

ولا يخفى ما في الدعاء بلفظ ﴿اهدنا﴾ من توسل بالجماعة فيستجاب دعاء العبد عرضا، إذ يصيب من رحمت الله التي أفاضها على عباده المؤمنين في الجمع والجماعة، لكون ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ مبني على ﴿الرحمن الرحيم﴾، ولحديث الرسول ﷺ: «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار»[67].

ولافتقار العبد للهداية في كل وقت أرشده الله تعالى إلى طلبها في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم ...﴾ الآية، وليس المراد حصولها فقط بل دوامها واستمرارها، فكان معنى الآية ثبتنا على الهداية لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (سورة آل عمران، الآية 8)، ولهذا "كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة"[68]، لقول الرسول ﷺ: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»[69].

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب ونيله أشرف المواهب علم الله عباده كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر

---

[64] الحديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.

[65] الحديث رواه الشيخان في صحيحيهما.

[66] الحديث رواه مسلم في صحيحه عن صفوان بن عبد الله بن صفوان.

[67] أخرجه الألباني في صحيح الترمذي من رواية عبد الله بن عمر وقال صحيح دون «ومن شذ».

[68] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية، تحقيق عماد عامر، دار الحديث، الطبعة الأولى 1996، ج.1، ص: 57.

[69] أخرجه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري من رواية عائشة أم المؤمنين بإسناد رجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة بقية [وربما دلسه]، وروي عن الشعبي كان يقول: «أفضل الدعاء الإلحاح».

عبوديتهم وتوحيدهم فهتان وسيلتان إلى مطلوبهم، فالتوسل إليه بأسمائه وصفاته والتوسل إليه بعبوديته وسيلتين لا يكاد يرد معهما دعاء.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال، هذا باب من السماء فتح اليوم ولم ينفتح قط إلا اليوم فسلم وقال، أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته»[70].

ولهذا والله أعلم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه»[71].

﴿صراط﴾ أي طريق، ومن معانيه كتاب الله، دين الإسلام، الطريق الهادي إلى دين الله، طريق الجنة، اختلفت العبارات والمعنى واحد.

﴿الذين أنعمت عليهم﴾ كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (سورة النساء، الآية 69).

﴿غير المغضوب عليهم﴾ من اليهود ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ (سورة البقرة، الآية 90). واسناد ﴿أنعمت عليهم﴾ إلى الله و﴿المغضوب عليهم﴾ لما لم يسمى فاعله على وجه التأدب في الخطاب مع الله سبحانه وتعالى.

﴿ولا الضالين﴾ من النصارى، لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة، الآية 77)، و"السبيل المستوي" هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، و"الضلال" الحيرة والعدول عن الحق، وأصل الضلال الهلاك ويستعمل في الطريق كما يستعمل في الدين فيقال ضل الطريق.

وأمرنا بالتأمين وهو قولنا: ﴿آمين﴾ عند خاتمة الفاتحة للدعاء الذي فيها، وقولك آمين اسم فعل معناه اللهم استجب دعاءنا.

والمناسبة بين خواتيم سورة الفاتحة وفواتح سورة البقرة هو أنه لما قال العبد بتوفيق ربه: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، قيل له: ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه﴾ هو مطلوبك وفيه أربك، وهو:

---

[70] رواه مسلم في صحيحه.

[71] أخرجه ابن تيمية في كتابه الصراط المستقيم، مكتبة طلب العلم/المكتبة الثقافية السعودية (بالمغرب) ط 1417 هـ، ص: 359.

﴿الصراط المستقيم﴾ و﴿هدى للمتقين﴾[72]. وفي مناسبة سباق وسياق هذه الآيات وأجواؤها نقل أن "بعد هجرة محمد ﷺ صار الناس ثلاثة أقسام: قسم مؤمنون وهم الذين آمنوا به ظاهرا وباطنا، وقسم كفار وهم الذين أظهروا الكفر به، وقسم منافقون وهم الذين آمنوا به ظاهرا لا باطنا. ولهذا افتتح الله سورة البقرة بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وثلاث عشرة [آية] في صفة المنافقين"[73]. ولقد اتفق العلماء على أن أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة، واختلفوا في سورة الفاتحة هل هي مكية أو مدنية؟ ومن مضمون السورتين يتبين أن سورة الفاتحة مكية[74] باعتبارها دعاء، وعلى أن فواتح سورة البقرة استجابة لهذا الدعاء، مع العلم أن فواتح سورة البقرة من أول ما نزل بالمدينة على الإطلاق قطعا، وفي هذا ايحاء على أن ترتيب السورتين في المصحف موقوف على النقل لا توفيق من العقل.

---

[72] كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، دراسة وتحقيق د محمد شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط 1990، ص: 190.

[73] رسالة في النفاق بقسميه وصفات المنافقين للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص: 12.

[74] يؤكد ما ذهبنا إليه قوله تعالى: ﴿ولقد أتيناك سبعا من المثاني﴾ (سورة الحجر، الآية: 87)، وهي مكية إجماعا. وقد روى أبو هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم» رواه الترمذي وصححه.

تفسير فواتح سورة البقرة:[75]

ومن أسمائها سنام القرآن، لقول رسول الله ﷺ: «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة»[76]. وفي هذا الإسم نكتة وهي تتجلى في المناسبة بين تسمية سورة البقرة بسنام القرآن، وتسمية سورة الفاتحة بالصلاة، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»[77]. ولغة العمود هو ما يستند إليه ويقوم عليه الشيء ويرتفع، أما السنام فهو أعلى الشيء وما ارتفع عن الأرض، فيلزم من هذا أن يكون العمود سابقا في الوجود، والسنام لاحق له مبني عليه.

ويكفي دليلا على ذلك المشاهدة، فعمود بطن البعير (الإبل) سابق في الوجود، وسنامه لاحق له مبني عليه في مرحلة الخلق والتكوين الجنينية. والنكتة في كل هذا هي أن سورة الفاتحة المسماة بالصلاة والتي هي جزء من الصلاة [عمود الإسلام] ولا صلاة بغيرها سابقة في النزول بمكة، وسورة البقرة المسماة بسنام القرآن لاحقة لها في النزول بالمدينة وعليه فهذه إشارة لطيفة نستأنس بها على ما سبق وأن ذهبنا إليه عند قولنا أن سورة الفاتحة نزلت بمكة، قبل نزول سورة البقرة بالمدينة والله أعلم.

﴿الم﴾ {1}، ألف حرف ولام حرف وميم حرف، وهي من حروف الهجاء التي افتتح الله بها بعض سور القرآن. أما المراد بها ومعناها فقيل في ذلك إنها من متشابه القرآن الذي لا يعلمه إلا الله تعالى. وهذا القول لم يرضه كثيرون بناء على القاعدة الأصولية في تفسير النصوص التي تنص على أنه: لا يجوز ورود ما لا معنى له في الكتاب. وعليه قيل هذه الحروف تقرأ مقطعة، وتصدير سورة البقرة بهذه الحروف الهجائية يجذب أسماع المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم فينتبهوا إلى ما يلقى إليهم من آيات بينات، كما تأتي لتنبيه على ما يأتي مباشرة بعدها مما يذكر فيها من

---

[75] في الأصل أعددت هذا التفسير لفواتح سورة البقرة لأنه كان مقررا لطلاب السنة الثانية من السلك الثاني بالجامعة من طرف د. محمد السيسي أستاذ مادة التفسير ورئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بمكناس.

[76] الحديث إسناده حسن أخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة من رواية عبد الله بن مسعود.

[77] الحديث حسن صحيح رواه الترمذي في سننه عن معاذ بن جبل. ولا تعارض بين هذا الحديث والذي قبله، لأن الأمر كما قال النبي الصادق ﷺ: «لكل شيء سنام»، فسنام الإسلام هو الجهاد في سبيل الله، وسنام القرآن سورة البقرة.

وصف للقرآن والانتصار له والإشارة إلى عظمته وبيان إعجازه تبكيتا للمعاندين وتسجيلا لعجزهم عن المعارضة، وهذا القول أيضا لم يرضه كثيرون بناء على القاعدة الأصولية في التفسير التالية: الإفادة أولى من الإعادة. إذ هذا القول يتكرر في كل موضع افتتح بهذه الحروف، فقالوا يحتمل أن يكون لها معان أخرى يجدها من يفتح الله عليه بالتأمل والنظر أو هبة من لدنه سبحانه، فنقول والله أعلم عالمين أننا لسنا منهم لكن متفيئين في ظلهم وبناء على القاعدتين الأصوليتين التاليتين في التفسير قاعدة: اعمال الكلام أولى من اهماله، وقاعدة التأسيس أولى من التأكيد.

اعلم أن الله تعالى افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها، الأول الثناء عليه تعالى، والثناء بدوره قسمان يعنينا منه القسم الأول، وهو اثبات لصفات المدح، كما مر بيانه في مفتتح سورة الفاتحة ﴿الحمد لله﴾. والثاني من الأنواع العشرة حروف التهجي، كما في مستهل سورة البقرة ﴿آلم﴾. وبين مطلع السورتين مناسبة لطيفة وهي أننا من جملة النعم التي نحمد الله عليها في قولنا: ﴿الحمد لله﴾ في سورة الفاتحة، نعمت انزال القرآن لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (سورة الكهف، الآية 1)، والكتاب من أسماء القرآن الذي نتعبد بتلاوته فينعم الله علينا بالأجر والثواب لقراءته، لقول رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[78]. فقوله تعالى: ﴿آلم﴾، تذكير بنعمه على عباده لقوله تعالى: ﴿الم {1} تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ {2}﴾ (سورة السجدة).

وفي قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾ {1}، "إشارة إلى القرآن، باستعمال اسم الإشارة للبعيد، لإظهار رفعته شأن هذا القرآن، لجعله بعيد المنزلة"[79]. "والإشارة إلى الكتاب كله عند نزول بعضه إشارة إلى أن الله تعالى منجز وعده للنبي ﷺ بإكمال الكتاب كله"[80].

وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ {1}، "المعنى أن ذلك الكتاب مبرأ من وصمات العيب، فلا شك فيه لا من جهة كونه من عند الله تعالى، وحاصله أنه كذلك في كل من نظمه وأسلوبه

---

[78] حديث صحيح أخرجه الألباني في صحيح الترمذي من رواية عبد الله بن مسعود.

[79] تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، ط 1984، ج.1، ص: 219، بتصرف بسيط.

[80] تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1990، ج.1، ص: 104.

وبلاغته ولا من جهة معانيه وعلومه، وتأثيره في الهداية لا يمكن أن توجه إليه شبهة أو تحوم حوله ريبة"[81].

وأما قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ {1}، "فالمراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة والأخذ باليد، والتقوى هنا يقصد بها اتقاء الله تعالى تعظيما لأمر عذابه وعقابه باتقاء أسباب العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه ، وهي اثنان:

الأول اتقاء الله في الآخرة بعدم مخالفة دينه وشرعه.

والثاني اتقاء الله في الدنيا بعدم مخالفة سننه في نظام خلقه"[82].

والمتقون في هذه الآية هم مشركون أسلموا وكان القرآن هدى لهم، فاتقوا عاقبة الشرك فآمنوا.

وفي قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ {2}، وصفهم بالإيمان بالغيب بعد أن كانوا يكفرون بالبعث والجزاء والمعاد، لأن الإيمان بما غاب عن إدراك الحواس هو الأصل في الاعتقاد بإمكان ما تخبر عنه الرسل عن وجود الله تعالى والعالم العلوي.

وفي قوله تعالى: ﴿ويقيمون الصلاة﴾ {2}، الصلاة هنا هي "الأقوال والأفعال المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم"[83]، "وإقامتها معناه المواظبة عليها والعناية بها"[84].

وفي قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ {2}، يفهم منها أن الرزق من الله فيجب أن يصرف في طاعة الله، والتقرب إلى الله بالمال يكون ببعض ما يملك الإنسان لا كل ما يملك. واتفق الجمهور أن الآية عامة تشمل سائر وجوه النفقات فيما يرضي الله من "النفقة الواجبة على الأهل والولد وذوي القربى وصدقة التطوع"[85] والزكاة وفي سائر وجوه البر والإحسان. وقيل الآية لا تشمل الزكاة لأنها "نزلت قبل فرض الزكاة المعينة"[86]، والإنفاق "أريد به هنا بثه في نفع الفقراء وأهل الحاجة وتسديد نوائب المسلمين، بقرينة المدح واقترانه بالإيمان والصلاة، فلا شك أنه هنا خصلة من خصال الإيمان الكامل، وما هي إلا الإنفاق في سبيل

---

[81] تفسير المنار، ج.1، ص: 104 – 105، بالتصرف.

[82] نفسه، ج.1، ص: 105، بالتصرف.

[83] نفسه، ج.1، ص: 108.

[84] تفسير التحرير والتنوير، ج.1، ص: 231، بتصرف بسيط.

[85] تفسير المنار، ج.1، ص: 109.

[86] نفسه، ج.1، ص: 109.

الخير والمصالح العامة، إذ لا يمدح أحد بإنفاقه على نفسه وعياله، إذ ذلك مما تدعو إليه الجبلة فلا تعني الآية بالتحريض عليه [هنا]"[87]. لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان كان محتاجا إلى دلائل صدق صاحبه وهي عظائم الإعمال، ومن ذلك ملازمة فعل الصلاة لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به، ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالا لأمر الله بذلك. "وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهي الإيمان الكامل، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هما أقدم المشروعات"[88].

وفي قوله تعالى: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ {3}، "هذه الطبقة الثانية من المتقين وهم مسلموا أهل الكتاب، وهذه الطبقة أرقى من الطبقة الأولى، لأن أوصافها تقتضي الأوصاف التي أجريت على تلك وزيادة، فالقرآن يكون هدى لها بالأولى. والمراد من لفظ الإنزال ما ورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الإلهي الأسمى، والمعنى المراد الإيمان التفصيلي بكل ما أنزل الله تعالى في القرآن.

وأما قوله تعالى: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ {3}، فيكفي فيه الإيمان الإجمالي"[89].

وفي قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ {3}، "فقد خصهم بهذا الوصف من بين باقي الأوصاف لأنه ملاك التقوى فإن علم اليقين بدار الثواب والعقاب يوجب اتقاء العذاب، وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي ﷺ"[90].

"وقيمة هذه الصفة هي الشعور بوحدة البشرية ووحدة دينها ووحدة رسلها ووحدة معبودها دون تعصب ديني، وقيمتها الاطمئنان إلى رعاية الله للبشرية على مر الأجيال، هذه الرعاية الظاهرة في توالي الرسل والرسالات بدين واحد وهدى واحد، واليقين بالغيب وبالآخرة هو الفرق بين من يعيش سجين إدراك حواسه، ومن يعيش حر طليق من الماديات"[91].

---

[87] تفسير التحرير والتنوير، ج.1، ص: 235.

[88] نفسه، ج.1، ص: 236.

[89] تفسير المنار، ج.1، ص: 111، بالتصرف.

[90] تفسير التحرير والتنوير، ج.1، ص: 239.

[91] في ظلال القرآن تفسير سيد قطب، دار الشروق، ط 17 – 1412 هـ، ج.1، ص: 14، بالتصرف.

وقوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ {4}، "إن السامع إذا سمع ما تقدم من صفات الثناء عليهم [من التقوى وإيمان وصلاة وإنفاق] ترقب فائدة تلك الأوصاف [وهي الهدى والفلاح الذي هو الظفر وإدراك البغية في الدنيا والآخرة]"[92].

والإشارة ﴿أولئك﴾ لقصد التنويه بتلك الصفات المشار إليها من تقوى وإيمان وصلاة وإنفاق، وبما يرد بعد اسم الإشارة ﴿أولئك﴾ من الحكم الناشئ عنها هدى وفلاح.

"وإنما وصف ﴿الهدى﴾ بأنه ﴿من ربهم﴾ للتنويه بذلك الهدى وتشريفه، مع الإشارة بأنهم بمحل العناية [بشأن المتقين]"[93]. وجيء بالضمير ﴿هم﴾ ليفيد الحصر، فهم المفلحون لا غيرهم من المغضوب عليهم أو الضالين.

[92] تفسير التحرير والتنوير، ج.1، ص: 242، بالتصرف.

[93] نفسه، ج.1، ص: 245.

التعريف بالمؤلف:

كريم امصنصف

- **من مواليد 1979 بمكناس.**
- **مجاز في الدراسات الإسلامية من جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس 2004.**
- **مدرس العلوم الشرعية بمؤسسة خاصة للتعليم العتيق بمكناس.**
- **أستاذ مادة التربية الإسلامية بمركز خاص لدروس الدعم والتقوية بمكناس.**
- **عضو بمنصة أريد العلمية العالمية للباحثين والخبراء والعلماء العرب.**
- **عضو بمجتمع مايكروسوفت للمعلمين.**
- **عضو مشارك بالملتقى الفقهي.**
- **عضو مشارك بملتقى أهل التفسير.**
- **عضو مشارك بملتقى أهل الحديث.**
- **حاصل على عدة شهادات في مجال الدراسات الإسلامية، والتربية والتعليم، وعلوم الحاسوب، والإدارة والاقتصاد.**

karimeknes 79